المحاضرة 4: الشعر الشعبي المغاربي ومجالاته

أ_ الشعر الشعبي المغاربي وإشكالية المصطلح:

أطلق الدارسون(المغاربة_ تونس_ الجزائر_ المغرب) على الشعر الشعبي تسميات كثيرة، تختلف حسب التسميات الشائعة في بيئة دون سواها، أو حسب اختيار الباحث لهذا المصطلح وذاك، وهو أمر مرده إلى اختلافهم مصطلح الشعر في حد ذاته، فلكلٍّ وجهةٌ هو مُولِّيها في اختيار المصطلح وإيمانه به بحجج وتبريرات يستدل بها على هذا الاختيار.

1_ محمد المرزوقي من تونس يعتقد بأن الشعر الملحون أعم من الشعر الشعبي، فالذين يطلقون على الشعر الملحون، اسم الأدب الشعبي أو الشعر الشعبي إطلاق خطأ يجب تصحيحه عند علماء هذا الفن، فالشعر الملحون...أعم من الشعر الشعبي إذ يشمل كل شعر منظوم بالعامية سواء كان معروف المؤلف أو مجهوله، وسواء روي من الكتب أو مشافهة، وسواء دخل في حياة الشعب فأصبح ملكا للشعب، أو كان من شعر الخواص، وعليه فوصف الشعر بالملحون أولى من وصفه بالعامي، فهو من لحن يلحن في كلامه أي أنه نطق بلغة عامية غير معربة، أما وصفه بالعامي فقد ينصرف معنى هذه الكلمة إلى عامية لغته، وقد ينصرف إلى نسبته للعامة. فكان وصفه بالملحون مبعدا له من هذه الاحتمالات"، وهو بهذا التعريف ينظر إلى هذا الشعر من زاوية اللغة المكسرة أو الملحونة على حسب قوله "فاللحن هو النطق باللغة العربية الفصيحة بلهجة غير معربة، أعني مخالفة قواعد الإعراب المعروفة في العربية الفصحى.

ويعلّل المرزوقي رأيه هذا "لأن وصف الشعر بالشعبي، يحدد الموضوع ويقصره على هذا الشعر المجهول المؤلف الذي توارثته الأجيال بالرواية الشفوية".

2_ اما الباحث عبد الله الركيبي من الجزائر فهو الآخر يختار مصطلح الملحون، ويعلل اختياره لإطلاق كلمة الملحون على الشعر الشعبي الجزائري، دون غيره من المصطلحات كالشعبي والعامي، راجع إلى ما شاع في بيئة المغرب العربي التي عنيت بدراسته وإيجاد الدارجة أداة له، وباستطاعته التعبير عن مزاج العامة.

أماعن عدم تبنيه مصطلح الشعبي، فمرد ذلك هو أن "إطلاق صفة الشعبي عليه، قد يوحي بأنه مجهول المؤلف، والشائع أن صفة الشعبية في الأدب تنصرف إلى ما له عراقة وقدم، والى ما يعبر عن روح جماعية بالكلمة، بحيث يصبح هذا الشعر تعبيرا عن وجدان الشعب عامة وعن قضاياه، دون اهتمام بالقائل، إذ ينصب اهتمام المتلقي على النص وحده".

3_أما الباحث المغربي عباس الجراري، فإننا نجده يتبنى مصطلحا آخر غير الشعبي والملحون، إذ يفضل أن يطلق على هذا الشعر شعر الزجل " فإننا نفضل إطلاق الزجل على كل أنواع الشعر الشعبي المغربي، وندعو إلى هذه التسمية بدلا من أية تسمية أخرى تطلق عليه مهما بلغت من الذيوع والانتشار"

وقد رفض عبد الله الركيبي هذا المصطلح " لأن الزجل تقليد للموشح أو هو صورة منه، ولكنه كتب بلهجة العوام، واتخذ من الموشحات شكلا نسج على منواله" ثم يضيف معلقا " والواقع أن إطلاق مصطلح الزجل على الشعر الجزائري الملحون، لا يستقيم لأن ألفاظه كما ذكرنا ليست عامية، وإنما هي مزيج من الفصحى والعامية".

وكاستنتاج إنه بالرغم من إطلاق النقاد ودارسي الأدب هذه التسميات المختلفة على الشعر الشعبي، نجد أن هذه الكلمة الأخيرة (الشعبي) تتطابق مع مفهوم الطبقات الشعبية لهذا الفن دون غيرها من المصطلحات، كالملحون والزجل والعامي، ذلك لأن صفته الشعبية ينبغي أن تستند إلى خصائص ومقومات الشعر الشعبي نفسها.

ب_ إشكالية ظهور الشعر الشعبي المغاربي:

الحديث عن نشأة أنماط الثقافة الشعبية عموما والشعر الشعبي خصوصا، صعب التحديد، وما وصلنا من نصوص الأدب الشعبي شفاهيا، يرتبط بالثقافة الإسلامية موضوعا ومحتوى، بحيث يصعب على الدارس تحديد ما كان متداولا قبل دخول الفتح الإسلامي إلى بلدان المغرب العربي.

وما يعرف عن ظهور هذا النوع من الإبداعات الشعبية، في أقطار المغرب العربي يرجع إلى الفترة التي دخل فيها الهلاليون إلى إفريقيا، في منتصف القرن الخامس الهجري حيث إنه قيل بعدم توفر نصوص من الشعر الشعبي سابقة لهجرة القبائل الهلالية، ولا بد

لذلك من أسباب لهذه الظاهرة، وهي طروحات تبقى مجرد احتمالات واردة، لا تعبر عن الحقيقة بصورة قطعية، ومن بين تلك الاحتمالات القول بأن انقراض الشعر الشعبي الذي كان موجودا قبل القرن الخامس الهجري، ربما يرجع إلى أن الشعر تعبير ذاتي يرتبط بأغراض حاربها الإسلام، لأنها تخالف مبادئ الشريعة الإسلامية وتتعارض مع الدعوة إلى تكوين أمة موحدة، ومن تلك الأغراض الشعرية نجد – الفخر – بالأنساب والمرأة، والتغزل بها، أضف إلى ذلك تمجيد الروح القبلية، وهاته الأغراض هي التي تتيح للشاعر أن يعبر عن وجدانه وعواطفه بالطريقة التي يريدها، ولو على حساب الأخلاق والمبادئ، التي تسيء إلى العلاقات الاجتماعية.

وهناك احتمال آخر مفاده أن الشاعر الشعبي، كان أميا ولا يحسن تدوين ما ينظمه ولما هجر الشعراء الشعبيون نظم الشعر الشعبي انقرضت نصوصهم.

ويذهب محمد المرزوقي إلى أن الشعر الشعبي ظهر في بلدان المغرب العربي بعد استقرار بني هلال وسليم في إفريقيا، وقد ورد في تعليله قوله: «لم يترك لنا التاريخ أي أثر لشعر منظوم باللغة الدارجة (الشعر الشعبي)، قبل منتصف القرن الخامس الهجري، أي قبل الزحفة الهلالية سنة 443هـ»، ويضيف أيضا «إن دخول الهلاليين إلى المغرب العربي وما قاموا به من حروب دينية، كان له أثر كبير على الحياة الثقافية والفكرية في المغرب العربي

كما يشير محمد المرزوقي إلى جانب ذلك التأثير، كثرة أولئك الأعراب وتغلبهم على إفريقيا وانتشارهم في مناكبها، والمعلوم أن بني هلال كانوا خليطا من القبائل العربية ذات اللهجات المختلفة، وكانوا ينظمون الشعر بهذه اللهجات، ومن هنا وجد الأفارقة في شعر الهلاليين ما شجعهم على نظم الشعر الشعبي من جديد.

ويرى محمد المرزوقي أن إرجاع ظهور الشعر، إلى استقرار بني هلال في المغرب العربي غير معقول، فمن غير المنطقي أن يصنع الهلاليون من أبناء المغرب العربي شعراء إن لم تكن موهبة الشعر للسكان أصلية، لهذا يمكن القول بأن تطور الظروف الاجتماعية والسياسية، وما أدخله الهلاليون من لهجات غير معربة، كان من العوامل التي ساعدت على عودة الشعر الشعبي من جديد.

ولعل من أهم العوامل المساعدة على انتشار هذا النوع من الفن، أي الشعر الشعبي في البلدان العربية، هو تأثير الأندلسيين، ولا نذهب بعيدا عن هذا الرأي الذي لا توجد أدلة قاطعة تؤكده، نجد فن الزجل، فهو من ابتكار أهل الأندلس، وقد اشترط في نظمه اللهجة العامية، وهو ما سهل على الشاعر الشعبي تقليده والنظم على منواله، ولازال تأثيره قائما حتى اليوم، نجد مثلا الفرق الأندلسية إلى غيرها من الأسماء التي تبين مدى تأثير هذه الهجرة في مثل هذا الفن، وقد جاؤوا فرارا من الظلم والاضطهاد بعد سقوط الأندلس، على عكس بنو هلال الذين دخلوا البلاد العربية من أجل تطبيق خطة سياسية للوصول إلى هدف معين.

ب_ مجالات الشعر الشعبي المغاربي:

نظم شعراء المغرب العربي في كل المجالات فكان هناك:

1_ الشعر الشعبي الديني

2_ الشعر الشعبي الثوري

3_ الشعر الشعبي الاجتماعي

4_ الشعر الشعبي الوجداني

وبرز في كل قطر من اقطار المغرب العربي فحولن أبدعت قرائحهم في إنتاج شعر غزير في جميع المجالات، ففي الجزائر نجد الأسماء الساطعة الآتية(الأخضر بن خلوف، عبد الله بن كريو، ومدين بن محمد بن سهلة، محمد بلخير، بو عبد الله الحاج محمد بن مسايب، محمد بن قيطون.....الخ، كما سطعت اسماء كثيرة في كل أقطار المغرب العربي وخاضوا في كل اغراض الشعر.